الباب الأول

كيف نتعلم ؟
كيف نُعَلِّم ؟

التعليم السماعي
الرأي وصاحب الرأي
أحادية الرأي
الطاعة
العقل والنقل
الفضيلة والضرورة
العاطفة والجنس
التربية الفردية
الهوية والانتماء
النظرة إلى التاريخ

١ـ التعلـيم السـماعي

منذ فترة طويلة وعلى اتساع أغلب أبرشيات الكرازة يطرح الشباب أسئلة تتكرر حول العقائد الأساسية في المسيحية : عن سر الثالوث والتجسد ، عن الفداء وأسرار الكنيسة ، عن بنوة المسيح للآب وبنوتنا نحن لله ، ويجد الخدام أنفسهم في مأزق حقيقي ! فقد تعودنا علي شرح الثالوث من خلال فكرة الأقانيم كما تعلمناها : الذات، والعقل ، والحياة ... وهنا واجهتنا مشكلة تقديم هذه العقيدة إلى شباب منهم من لم تتح له الفرصة الكافية للتعليم أو الثقافة .. ثم كيف نجيب على سؤال يقول : آمنَّا وصدقنا بأن الله واحدٌ مثلث الاقانيم ، ولكن ما فاعلية هذا الإيمان في حياتي أو نفعه في تعاملاتي مع الناس ؟[1] . وبالطبع توجد إجابات علي هذه الأسئلة ، ولكن ما اكتشفناه في أنفسنا كان : إننا قد تعلمنا هذه الأشياء وحفظناها دون فهم حقيقي ولفت هذا أنظارنا إلي أن أموراً كثيرة نتعلمها بالسماع دون أن نعيها وعياً أصيلاً .

أعلم أن هذا الكلام قد يكون صدمةً لكثيرين ، ولكن لنأخذ مثالاً : في قصة المرأة التي أمسكت في حالة تلبس ، وعندما قدمت إلى الرب ليحكم عليها ، انحنى على الأرض يكتب . ترى ماذا كان يكتب ؟ الشائع أنه كان يكتب خطايا اليهود الذين اتهموا المرأة وأنهم ما أن رأوا خطاياهم مكتوبة حتى انصرفوا واحداً وراء الآخر ، ولكن الإنجيل لا يذكر هذا ، وإنما يذكر أنهم لم يبدأوا في الانصراف ، إلا بعد أن واجههم يسوع بقوله الشهير "من منكم بلا خطيئة فليرجمها أولاً بحجر – يو ٨: ٦" . ترى من أين جاءت تلك المعلومة التي تتردد باستمرار ؟ ... لقد بحثت حتى وجدتها .. فهل تعلمون أين؟!.. في الكتاب المزيف والمسمى زوراً "إنجيل برنابا"[2] .

ولعل بعضنا قد سمع القصة المنسوبة إلى اللص اليمين ، أنه قطع الطريق ذات يوم على العائلة المقدسة وهي في طريق هروبها إلى مصر وأن المسيح الطفل تحدث إليه بكلام أدى إلى انصرافه عنهم ومعاملتهم باحترام ، وأن اللص قد تذكر هذا الموقف وهو على الصليب إلى جوار رب المجد . ولكن لا يوجد أي دليل على هذا الكلام فهي مجرد " حدوته " تروى لا أصل لها . ولعل القارئ لمشاهد الصلب من الأناجيل سيرى بوضوح أن اللصين كانا في البداية يجدفان معاً على المسيح ، ثم تحول اللص اليمين إلى موقفه المعروف عندما طلب من رب المجد أن يذكره متى أتى في ملكوته . والعجيب أن البعض يؤكدون على أن هذه القصة واردة في السنكسار مما اضطرني للبحث في السنكسار كله ... ولم أجدها !

الخلاصة أن معلومات كثيرة يتم تداولها على ألسنة الوعاظ ، وإذ قد تعود الناس على أن يتعلموا بالسماع دون تأصيل للمعلومات أو المفاهيم . فسرعان ما تنتشر هذه الأمور وتصبح أخطاء شائعة.

يذكرنا هذا بكتبة اليهود الذين كانوا يحفظون الشريعة والناموس والكتب ، بل ويجتازون امتحاناً حتى يؤذن هم بالتعليم ، ورغم هذا لم يستطيعوا الإجابة على سؤال رب المجد هم حول كلمات المزمور " قال الرب لربي " (مز ١١٠ :١ + مت ٢٢ :٤٤) ... كيف هذا ؟! كل هذه المئات من السنين ، ولم يتساءل أحد قط : كيف

---

[1] الثالوث القدوس جوهر واحد وثلاثة أقانيم ، وعندما يستوعبه المسيحي يعيش قبول الآخر رغم تنوع المواهب والميول والظروف، كما يعيش التكامل بين احتياجاته الروحية والنفسية والجسدية والفكرية دون صراع وهو ما لا يتحقق إلا بعمل الروح القدس داخل النفس من خلال أسرار الكنيسة المقدسة .

[2] الناشر : دار القلم – الكويت – الطبعة الثانية ١٩٨٣ – الفصل ٢٠١ .

يكون المسيح ابناً لداود ، ورباً لداود في نفس الوقت ؟! .. لقد كانت مشكلتهم أن المطلوب كان الحفظ وليس الفهم . وفي إنجيل الراعي الصالح (يو ١٠) تعود أكثر الخدام على تفسير الحظيرة بأنها الكنيسة ، ولكن قراءة النص توضح أن الراعي سيأخذ الخراف ويخرج بهم من الحظيرة ، فكيف يمكن أن تكون الكنيسة هي الحظيرة ؟ ، ولكنني كمعلم أردد ما أسمعه دون تدقيق . إن خطورة التعليم بالسماع في أنه يؤدي إلى تعود الناس على عدم التفكير وعدم البحث وبهذا يتسلمون الأمور الأساسية في كنيستهم بالنقل دون العقل ، وبديهي أن من يتلقى الفكرة بالتلقين لا يتفاعل معها . ولكن هذه القضية لها جانب أخر أيضاً .

٢ـ الـرأي وصاحب الـرأي

مادام التعليم بالسماع دون البحث ، وبالنقل دون العقل ، وبالتلقين دون الحوار .. تصبح قيمة المعلومة مستمدة من شخص قائلها وليس من صحة محتواها . وما أسهل أن نردد أية آراء ثم نقول إن هذا هو رأي الآباء ، دون بحث أو تأصيل للفكر الذي يطرح للناس... أكاد أسمع البعض يقولون " غير معقول ! " ، وهو فعلاً غير معقول ، ولكن هذا هو العرف الجاري ! قل ما تشاء ثم اسنده إلى ذهبي الفم أو أغسطينوس أو جيروم أو يوستينوس أو كبريانوس ، فمن يجرؤ عندئذ أن يناقشك ؟!

وذات مرة استمعت إلى واعظ يشرح جزءاً من سفر أشعياء عن أرض مصر (أش ١٩ : ٦، ١٠) وإذ به يفسر "وتجف سواقي مصر " بالآثار الضارة للسد العالي !! وهو ما تردد في بلادنا لفترة من الزمن ، وحين وصل إلى قوله "كل العاملين بالأجرة مكتئبين النفس .." قال بثقة : طبعاً .. فأكثر الناس تعباً هذه الأيام هم الموظفون !.. ترى ماذا يقول هذا الواعظ اليوم ؟ بعد أن تأكد للجميع أن السد العالي هو الذي أنقذ مصر من المجاعة وقت الفيضان المنخفض ، ومن الغرق وقت الفيضان الكاسح ، وبعد أن أصبحت الوظيفة الحكومية حلماً لشباب كثيرين.

إن خطورة هذا المنهج – التعليم بالسماع - ، وبناء صحة المعلومة على شخص قائلها تكمن في أنه يؤدي إلى انعدام الحوار تماماً ، وهو أمر لم يفعله السيد المسيح أبداً ، فما أكثر محاوراته مع تلاميذه ومحبيه ، بل ومع أعدائه ومعارضيه .

أتى كتبة اليهود يسألون رب المجد : بأي سلطان تفعل هذا (مت ٢١: ٢٣) ، أي من أعطاك الإذن بالتعليم ، لم يناقشوه في محتوى تعاليمه ، ولم ينتبهوا إلى القوة الفعالة في كلماته ، ولم يلتفتوا حتى إلى آياته ومعجزاته (يوحنا ١٤: ١١) . ولكنهم تناولوا المسألة من زاوية شخصية وليس من زاوية موضوعية ، والحق أن هذا مرضٌ تفشى في بلادنا ، وهو أنني ما دمت أرفضك شخصياً فأنا أرفض آراءك بغض النظر عن محتواها ، وما دمت أقبلك شخصياً أعضد كل مواقفك بغض النظر عن محتواها ، وأي ألم يشعر به المتأمل في أحوالنا وهو يرى الناس يصفقون لكلام لا يقبله عقل ، ولكنه صادر ممن يحتل مقام الرضا عند العامة ، وليس ببعيد حين صفقوا لمن قال على الملأ أنه سجد لله شكراً حين ألمت ببلادنا الهزيمة ، وحين لم تخلُ أسرة من مأتم ، لأن الهزيمة – كما يرى – ستدفعنا إلى اللجوء إلى الله . ولو كان هذا صحيحاً لكان سبب الهزيمة هو أن أعداء الوطن كانوا

على صلة قوية بالله ! ، ولكن المسألة أن الذي استعد جيداً للحرب هو الذي انتصر .. ولكن لمن تقول هذا ؟ وكيف تجرؤ أن تعارض وقد وضع الناس عقوهم جانباً !

كان أسلوب السيد المسيح في التعليم هو الحوار ، وهو سيد الأساليب ، فبه يتحرك الفكر وتتضح الخفايا ، ويستوعب الناس المضمون دون شكوك ، فقد طرحوا اعتراضاتهم وناقشوها . والحوار هو الضمان ضد انتشار أي فكر بلا أساس أو أية معلومات بلا أصل ، وهو السبيل إلى أن ينظر الناس إلى المضمون وليس إلى القائل ، وروح الله قادر أن يعمل في الكنيسة ويرشدها إلى الرأي السليم .

الخلاصة إذن هي :

١) تأصيل وتحقيق ما ينسب إلى الآباء من فكر عقيدي أو منهج روحي ، بمعنى التأكد من مصدره ومحتواه .

٢) المناقشة الحرة البناءة لكل رأي بغض النظر عن صاحبه.

٣) عدم بناء صحة الرأي على مكانة من ينسب إليه ، وإلا لكانت الكنيسة قديماً خضعت لآراء نسطور[٣] الخاطئة لمجرد أنه كان بطريركاً لعاصمة الإمبراطورية .

بقي أن ننبه إلى أن : الخط الفاصل بين الحوار البناء والجدل المميت هو روح المحبة واختفاء كل وجهة نظر نفعية أو ذاتية واستبعاد الأنا خارج دائرة الحوار ...

٣ – أحادية الرأي

إن أسلوب التلقين وربط الرأي بصاحبه ، يجعل الناس يطلبون في كل مسألة رأياً واحداً بينما توجد أمور من الممكن أن يكون فيها أكثر من رأي وكلها سليمة . ولعلنا نذكر القصة الواردة في بستان الرهبان [٤] عن راهبين عادا إلى الدير – بعد فترة ابتعاد – ليتلقيا تدريباً للتوبة والاعتكاف لمدة عام في نهايته ظهر إحدهما نحيفاً سقيماً عابس الوجه ، بينما بدا الثاني ممتلئاً مبتهجاً باسم الطلعة ، وإذ تحير الشيوخ في أمرهما ، قال الأول أنه كان كل يوم يذكر خطاياه ، والعذاب المعد للأشرار ، بينما قال الثاني أنه كان يشكر الله كل يوم إذ أتاح له فرصة التوبة .. وتأكد الشيوخ أن توبة كليهما مقبولة أمام الله . وفي البستان أيضاً نقرأ عن شخص جاء إلى برية شيهيت لينتفع بزيارة الآباء ، وبينما جلس معه القديس أرسانيوس دون كلام ، استقبله القديس موسى الأسود بترحاب وأجابه على كل ما رغب في معرفته ، وهنا أيضاً تأكد أن الأسلوبين مقبولان . لو طرحت هذه القصة الآن لتساءل الشباب : ما هو الأسلوب الصحيح ؟.. هذا أم ذاك ؟! ويتكرر كثيرا في الاجتماعات الروحية، عقب مناقشة بعض المسائل مثل الزواج والبتولية ... الخدمة والرهبنة .. أن يطلب الشباب الرأي

[٣] جدير بالذكر هنا أن أغلب الآراء المنحرفة عن العقيدة السليمة قد خرجت من أناس مرموقين في الوسط الكنسي في عصور مختلفة والأمثلة عديدة، فقد كان أريوس قساً مرموقاً، أما أوطاخي فكان رئيس لدير ، وكان بولس الساموساطي أسقفاً بينما يزعم النقولاويون أنهم أتباع نيقولاوس أحد الشمامسة المختارين (أع ٦: ١-٦) وكلهم خرجوا بهرطقات أتعبت الكنيسة زماناً طويلاً .

[٤] لجنة التحرير والنشر بمطرانية بنى سويف – طبعة ١٩٦٨ – ص ٢٩٨ وص ٤٧ .

النهائي (آخر كلام !) ، بينما من الواضح أن تشبيه القديس بولس للكنيسة بالجسد يعني تنوع الوظائف للأعضاء دون تمزيق الوحدة .

كيف نتصور أن شبابنا سيقبلون باهتمام على الاجتماعات الروحية ، والمطلوب منهم ، دائماً وأبداً ، أن يكونوا مستمعين ؟! وكيف يمكن أن يتكون جسد واحد من أعضاء متطابقة تقوم كلها بنفس العمل ، وتردد نفس الرأي (لو كان جميعها عضواً واحداً أين الجسد -١ كو ١٢ : ١٩) ؟!

إن استيعابنا لفكرة تعدد الآراء في إطار الوحدة ، سيكون أول ترجمة لسر الثالوث في حياتنا اليومية ، حين نستوعب التنوع داخل الجسد الواحد .

٤ـ الطـــاعة

ينقل إلينا كتاب " بستان الرهبان " قصصاً ذات مغزى عميق عن الطاعة منها القصة الشهيرة عن شجرة الطاعة وغيرها ، ولا شك أن الطاعة عمود فقري لحياة الرهبنة، كما أنها منهج ضروري في الحياة الداخلية بصفة عامة، وفي العلاقة بين كل إنسان ومرشده الروحي بصفة خاصة . ولكن السؤال هنا عن : نوعية الطاعة ، ومجالات الطاعة .

إن الطبيب له أن يطلب من المريض أن يتناول دواءً محدداً في أوقات محددة ، وله أن يقرر على المريض أن يلتزم براحة مقننة بطريقة مقننة ، وله أن يفرض على المريض أن يتناول أطعمة معينة بمقادير معينة ... ولكن ليس له أن يلزم المريض بقراءات معينة أو صداقات محددة !! فبديهي أن هذا لا يدخل في مجال اختصاصه أو سلطانه على المريض .

هكذا أيضا المرشد الروحي ، إن له مجالاً للعمل ، وهو البناء الروحي الداخلي للإنسان ، وله أن يطلب من الشباب الطاعة فيما يختص بذلك ، مثل مقاومة أفكار البغض والحسد والشهوة والكبرياء .. ومثل ترتيب الصلاة وقراءة الكتاب المقدس والصوم والتقدم إلى التناول ، وبالطبع السلوك المرتبط بكل هذا . ولكننا نحمل مرشدينا الروحيين مسئولية القرار في أشياء بعيدة عن المجال الروحي ، مثل اختيار التخصص في الدراسة أو جهة العمل أو اختيار شريك الحياة ، ولا نكتفي منهم بالتوجيهات العامة مثل : وضع هذه الأمور أمام الله في الصلاة ، والتفكير العميق المتأني والإكثار من المشورة ، وتنقية الدوافع ، وعدم التسرع في اتخاذ القرار ... بل نطلب منهم قراراً محدداً ...

هل أدخل كلية التجارة أم كلية العلوم .. هل أسعى للسفر أم أبحث عن عمل .. هل أتزوج فلاناً أم علاناً .. ؟!

وبهذا يصبح على المرشد الروحي أن يكون لديه من الخبرة والمعرفة ما يمكنه أن يكون بمثابة إدارة للقوى العاملة ، ومندوب للتجنيد ، وباحث اجتماعي ، ومكتب للتنسيق !! إن الاستئناس بالرأي أمر مستحب ، لكن السلبية وانتظار القرار من فم إنسان آخر إلغاء لإمكانيات الإنسان وعمل النعمة فيه .

إن الناس يفعلون هذا لأنهم تربوا منذ الصغر على عدم اتخاذ قرارات لأنفسهم ، بينما من الأفضل جداً للإنسان أن يتعود على التفكير بصوت مرتفع أمام من يثق في مشورتهم ، ثم يتخذ القرار المناسب بنفسه .

وأحيانا يتعرض الخادم لمواقف غريبة حين يطلب منه الشباب حلولاً لمشاكلهم ، ولست أدري كيف يتوقع الناس من الخادم أن يقدم لهم الحل ، وهو يسمع المشكلة من طرف واحد فقط ، وهو لا يدري شيئاً عن طبيعة أطراف المشكلة ، وحتى لو علم ، فمن الأقدر على اقتراح الحل السليم : الخادم الذي يسمع المشكلة لأول مرة ، أم الشخص الذي يعيش المشكلة ويدرك ميوله وقدراته ؟! . الأفضل هو التفكير المشترك مع من تثق في حكمته وكتمانه ، وبه قد يصل الشاب إلى الحل المناسب ، والذي لا يجب أن يتوقع أن يقدم إليه بصورة جاهزة .

أتى شخص إلى السيد المسيح يطلب منه أن يقسم الميراث بينه وبين أخوته ، فرفض قائلا "يا إنسان من أقامني قاضياً أو مقسماً . لو١٢ : ١٤ " .. أحيانا يطلب منا – نحن الخدام – أن ننصب من أنفسنا قضاة ومحكمين .. وبالطبع يمكن للمرشد الروحي أن يقدم المشورة النابعة من خبرة وتجربة الحياة ، ولكن القرار في النهاية ينبغي أن يكون لصاحب القرار فهو صاحب المشكلة وهو أدرى بظروفه ، وهو وحده الذي سيتحمل نتائج القرار .

وماذا عن الطاعة المطلوبة ؟ هل هي طاعة عمياء دون فهم أو تفكير ؟!

واضح أن هذه هي الطاعة التي كان الفريسيون يطلبونها من الناس ، وهو الأمر الذي رفضه رب المجد يسوع حين فند بقوة حجج اليهود وتعاليمهم واصفاً إياهم بالجهلة والعميان حين يطلبون من الناس الالتزام بأمور لا معني لها[٥] .

لقد سئل السيد المسيح : هل ندفع الضريبة لقيصر أم لا ؟ (يطلبون أيضا الرأي الواحد) فأجابهم " أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله " وبالطبع يحتاج هذا إلى أن تكون الطاعة ، سواء لله أو لقيصر ، طاعة مبصرة ، أي مدركة واعية ، وإلا فكيف يمكن – دون فهم – ان نميز بين ما هو لله وما هو لقيصر ؟! (لو ٢٠ : ٢٥) .

وذات مرة التقيت شاباً وعلمت منه أنه درس في كلية الآداب قسم اللغة إليونانية ، ولما سألته لماذا اختار هذا التخصص الذي يضيق أمامه فرصة العمل ، هل عن حبٍ للغة اليونانية ؟ أجابني أن هذه مشورة مرشده الروحي إذ قال له إن الكنيسة تحتاج إلى هذا التخصص ، فعدت أسأله وهل وجد لك المرشد عملاً بعد أن تخرجت . صمت الشاب ، وكان صمته أبلغ من الكلام .

أتى بعض إليهود إلى القديس بطرس يسألونه ، أو بالأحرى يطالبونه : ألا يدفع المعلم ضريبة الهيكل ؟ فذهب بطرس إلى يسوع الذي سأله : " من ينبغي أن يدفع الأبناء أم الأجانب ؟ فأجابه بطرس : الأجانب ، فقال يسوع : فإذا البنون أحرار. (أي لا ينبغي أن يدفعوا الضريبة) ، ولكن لئلا نعثرهم (لئلا يظنوا ظناً خاطئاً) أذهب وأدفع عني وعنك . هنا أيضاً طالب المسيح بطرس بطاعة واعية بعد إيضاح السبب (مت ١٧) .

يقودنا هذا إلى أن الطاعة المطلوبة للمرشد الروحي - في مجال عمله - ينبغي ان تكون عن فهم ووعي . وعندما طلب مني مرشدي الروحي أن أهتم بصلوات الساعات (الأجبية) وإذ سألته : لماذا ؟ قدم لي خلاصة اختباره عن الفائدة الحقيقية لهذه الصلوات في بناء النفس . ولا شك أنه لو لم يختبر هذا في حياته ، لما استطاع أن يجيب على سؤالي ، ولما استطعت أنا أن أتمتع بثمار الطاعة الواعية .

---

[٥] راجع بقراءة متأنية حديث السيد المسيح في إنجيل متى ٢٣ .

والحق أن هذا منهج أساسي في الحياة الأرثوذكسية وهو ألا نعلم أو نرشد إلا عن اختبار ، أما أن نقدم عبارات محفوظة للناس ، مثل " أسكب قلبك وقدم حياتك " .. وما شابه ، فلن يؤدي هذا إلا إلى تزايد اقتناع الشباب بأننا نبيع كلاماً لا نحياه ، وإن لم أقدم اختباري عن كيفية " سكب القلب " أو " تقديم الحياة " فالأولى أن أصمت وأطلب من الشاب أن يستقي المعرفة من مصدر مختبر . وفي رأيي أن هذا لا يقلل أبداً من مكانة الخادم لدى الشباب .

لقد وصل الأمر إلى ترديد عبارة " ابن الطاعة تحل عليه البركة[٦] " بمناسبة ودون مناسبة ، حتى أنني شاهدت بعيني في إحدى كنائس الوجه البحري لافتة تقول "ممنوع نهائياً الكلام والجلوس أثناء القداس ، لا تتكئ على مقعد أو ترخِ قدميك بل قف مستوياً مشدود الركب وبلا تمايل ، وابن الطاعة .. " ! بينما نقرأ عن القديس الأنبا بيمن حين اشتكى له راهبان أن أخاً يغلبه النوم أثناء التسبحة فقال هم أفسحوا له المكان ليستريح [٧]. بل وفي أحد المزارات حيث " زير " لمياه الشرب ، كتبوا "الرجاء وضع الغطاء على الزير بعد الشرب ، وابن الطاعة ... " !

الخلاصة : أن الطاعة المطلوبة للمرشد الروحي ، يجب أن تكون في حدود مجال الإرشاد الروحي ، وأن تكون عن وعي وفهم لا يتأتى إلا إذا كان المرشد مختبراً[٨] لمراحل الإرشاد والبناء الروحي الداخلي ، قبل تقديم المشورة لمن يطلب الإرشاد الروحي . أما في غير مجال البناء الروحي الداخلي ، فيجب أن ندرب أنفسنا ، ونربي أولادنا وبناتنا منذ الصغر ، على تحمل المسئولية وإتخاذ القرار .

٥ – العـقل والنـقل

إن الفهم المسطح لقضية الطاعة يقودنا إلى موقف خطير حقاً ، إذ يؤدي إلى تضييق مجال الحوار ، وربما إلى انعدام الحوار في مجالات حيوية للغاية ، وأهمها العقيدة . إن دراسة العقيدة ليست ترفاً فكرياً ، فالسيد المسيح لم يعلن لنا سر الثالوث أو التجسد أو الفداء لكي يبرر ما حدث ، إذ ولد من العذراء ، وعاش على الأرض وكرز بالملكوت ، وصلب ومات وقام من بين الأموات ، وصعد إلى السموات وأرسل لنا الروح القدس... ولكنه أعلن لنا الثالوث والتجسد والفداء ، لأنها ركائز أساسية لمغزي الوجود وإجابات على أسئلة مصيرية بدونها تفقد الحياة معناها ... أسئلة مثل : من خلقنا ؟ وعلى أية صورة ؟ ولماذا خلقنا ؟ وما العلاقة بين الإنسان وباقي الخليقة ؟ ما معنى الوصية ؟ وما هي الخطية ؟ ولماذا نتألم ؟ ولماذا نحيا ؟ ولماذا نموت ؟ ولماذا يحاسبنا الله ؟ وأين نذهب بعد الموت ؟ وما دام الله موجوداً لماذا ينجح الأشرار بينما يتألم كثير من الأبرار ؟ وما دام الله عادلاً لماذا يوجد فقر وغنى ، صحة ومرض ، قوة وضعف ؟ ..

---

[٦] لم أجد هذه العبارة فى الكتاب المقدس أو فى كتابات الآباء وأعتقد أنها مجرد قول شائع .

[٧] بستان الرهبان – الطبعة السابقة – صفحة ٩٠ .

[٨] هذا وضعت الكنيسة بإرشاد الروح القدس مواصفات خاصة لأب الإعتراف : القمص يوحنا سلامة : اللآلي النفيسة – ج٢– صفحة ١٧٧ – عن المجموع الصفوى ص ٤٢٦ .

ولا يستطيع أي مجتمع ، بل أي إنسان ، أن يمارس حياة سليمة دون إجابات واضحة على هذه الأسئلة ، وحين يفهم الناس هذه الأساسيات يترجمونها في حياتهم إلى سلوك وتعامل : كل واحد مع الله ، ومع نفسه ، ومع الآخرين ، ومع المادة والكون المحيط به .

وقد تعلمنا إجابات منذ الصغر ، أخذناها في صورة دفاعات أو ردود على اعتراضات ، وقليل منها ما هو مطروح في صورة إيجابية ، بمعنى أنه يقدم التفسير والشرح ، وليس مجرد التبرير أو الدفاع ، وكانت النتيجة أن غالبية الناس يرددون أن هذه الأمور صعبة ، ومن الأفضل عدم الخوض فيها ، ولنأخذها بالإيمان ، بمعنى التصديق بغير فهم !!

ويقيني أن الله لم يكن ليعلن عن نفسه وعن أسراره للناس ، لو لم يكن قد خلقهم قادرين على فهمها ، ولو لم يكن لفهمها أثر مباشر على حياتهم وسلوكهم ....

أريد أن أقول أننا قد توقفنا في تناولنا لهذه الأمور عند ما وصل إلينا من أفكار غير محققة المصدر ، وليكن واضحاً أنني لا أعني ما كتبه الآباء القديسون ، فعلى عكس ما هو شائع بين الناس عن صعوبة فهم العقيدة المسيحية ، قدم الآباء الكبار – مثل القديس اثناسيوس الرسولي والقديس كيرلس الكبير والقديس ايرينيوس وغيرهم – شروحاً هي قمة في البساطة والدقة والمنهج العملي والأسلوب المنطقي ... ولو كانت هذه الأمور لا يمكن للعقل أن يستوعبها فلمن كتب هؤلاء المعلمون العظام ؟ . وهنا يجب أن نفرق بين الذات الإلهية divinity وبين التعليم الإلهي theology . أما عن ذات الله الذي يصفه القداس الغريغوري "غير المحوى غير الموصوف غير المنطوق به " فهذه لا يمكن للعقل أن يستوعبها وليس مطلوباً من الإنسان أن يستوعبها ، أما التعليم الإلهي فهذا لا يمكن للمسيحي أن يحيا حياة سوية دون فهمه فهماً عميقاً وكاملاً ، ولكن الخلط نشأ عن ترجمة التعليم الإلهي بكلمة اللاهوت . لقد استوعبت الكنيسة الفرق تماماً وأوضحت أن المقصود بـ " اللاهوت " هو التعليم الإلهي . لذا نجد كنيستنا تتحدث عن اللاهوت الطقسي ، أي التعليم الإلهي الخاص بالطقوس ، واللاهوت الروحي ، واللاهوت العقيدي ، بل يمكننا أن نتحدث عن لاهوت الشباب ، أي التعليم الإلهي الموجه للشباب .. وهكذا .

فمتي نعيد اكتشاف تراثنا ؟ ومتي نعيد صياغة إجاباتنا على مسائل العقيدة في أسلوب بسيط .. أسلوب رجل الشارع المسيحي ؟! لكي نفهم إيماننا وندرك أنه الجوهر الثمين لحياة الفرح وهو السبيل الوحيد إلى السعادة النقية التي يبحث عنها الجميع ولا يجدونها .

إن التمسك بمقولة أن العقائد أعظم من إدراك الإنسان يضع سداً خطيراً أمام الشباب ويحرم الناس من الخبز الحقيقي الذي أن أكل منه أحد لا يجوع ، ومن الماء الحقيقي الذي أن شرب منه أحد لا يعطش أبداً .

وما قلناه عن أسلوبنا في تعليم العقيدة ، يمكن أن يقال أيضاً عن أسلوبنا في تعليم الطقوس . إننا كخدام نشرح الطقوس شرحاً تبريرياً وليس شرحاً حياتياً .. فمثلا دوران الشماس حول المذبح ، نفسره بدوران يشوع بن نون ومن معه حول أسوار أريحا ، ولكننا لا نوضح أهمية ذلك لحياتنا وعلاقتنا بالله وبالناس وبالكون ،

وذلك لسبب بسيط هو أننا لا نعرف !! ، إن علينا أن نوضح – عن اختبار – صلة كل حركة من حركات الطقس ببناء الإنسان في المسيح ، وما دمنا لا نفعل ، يمارس الناس الطقس دون فهم كاف .

وتبقي المعجزة الحقيقية ، أن الروح القدس قد عمل في إناس في كل عصر ، فاستطاعوا أن يحتفظوا للطقس بحرارته وحيويته وقدرته الفعالة على إضعاف الإنسان العتيق بداخلنا ، وبناء الإنسان الجديد ، والذي يتجدد باستمرار .

ولنحترس هنا فالطقوس ينبغي أن تشرح وتمارس معاً ، فقد نستطيع أن نفهم محتويات الطعام من بروتينيات وسكريات ، ولكننا لا نستطيع أن نشرح مذاق الطعام، فلابد للفرد من أن يتذوقه بنفسه .. فالفهم لا يكتمل إلا بالممارسة ، وممارسة الطقس عن فهم تشبه من يتناول برتقالة لأنها لذيذة الطعم وأيضاً لأنها تحتوي على فيتامين "ج" ، بينما الممارسة دون فهم تشبه تلك العصائر الصناعية ، التي وإن حملت مذاق البرتقال ألا أنها لا تحوي الفائدة المرجوة . نعم ... نحتاج إلى أن نمارس وإلى أن نفهم معاً ، وسنجد في تراثنا مدداً حياً ، وفي اختبارنا الحياتي برهاناً قوياً ، فعلينا أن نعيش وندرس ونمارس ونفهم ثم نعلّم .

٦ – الفضيلة والضرورة

بادرني زميلي في الخدمة بقوله :

+ أدعوك إلى إلقاء كلمة في اجتماع الشباب في كنيستنا

– في أي موضوع ؟

+ فلتحدثنا عن أحد الفضائل .. كما تعرف .. عن الإيمان ، الرجاء ، العفة ، الإتضاع ..

– وما معنى الفضائل في رأيك ؟

+ هي قيم مسيحية مفروض أن نتحلي بها

– وما هي القيم ؟

+ نعم !؟ .. هي صفات ثمينة يقتنيها الإنسان

– ولماذا يقتنيها ؟

+ لكي لا يشابه أهل العالم ، ألم تقرأ كيف أن قديساً قضي سنيناً لكي يقتني فضيلة واحدة !!

– أجل ولكن ، فيم يمتاز شخص لديه فضائل كثيرة ، عن شخص لديه فضيلة واحدة ؟

+ كما يمتاز نجم عن نجم في المجد

– تعني في مكانته في ملكوت السماوات ؟! أتظن أن ذلك القديس الذي حدثتني عنه قد مضى حياته سعياً لاقتناء الفضائل لكي ينال درجة أعلى في الملكوت !!

+ نعم .. ولأسباب أخرى أيضاً . أن يعيش الإنجيل .. أن يعيش وصايا المسيح

– عظيم .. ولماذا يعيش وصايا المسيح ؟

+ قال الرب " من يحبني يحفظ وصاياي " ومن يعيش الوصايا يبرهن على محبته .

– ولماذا يبرهن ؟

+ لكي يدخل ملكوت السماوات . أليس الملكوت هو هدف الحياة المسيحية ؟!

– نعم الملكوت ليس هدفاً ، ولكنه نتيجة للحياة المسيحية ، بل الإنسان هو الهدف

+ اسمح لي .. كيف تعطي الإنسان أهمية أكثر من ملكوت الله ؟!

– لدى الله .. الإنسان أهم !!

+ هذه هرطقة !!

– أسمعني حتى النهاية !! هل يهتم الله بذاته أم يهتم بالإنسان ؟

+ هذا سؤال عجيب !!

– لماذا تجسد المسيح ؟

+ ليقدس طبيعة الإنسان

– وماذا سمي المسيح نفسه ؟

+ ابن الإنسان

– ولماذا صلب المسيح ؟

+ ليحمل اللعنة عن الإنسان

– ولماذا مات المسيح ؟

+ ليفتدي الإنسان من الموت

– ولماذا قام المسيح ؟

+ لينتصر على الموت ويكون باكورة لبني البشر

– ولماذا صعد المسيح ؟

+ ليعد للإنسان مكاناً في السماوات

– ولماذ أرسل الروح القدس ؟

+ ليعزي ويرشد ويجدد الإنسان

– هل أدركت الآن ما أعنيه

+ وما علاقة هذا كله بموضوعنا

– وما هو موضوعنا ؟!

+ الفضائل المسيحية

– رأيي أن الفضائل ليست موضوعنا ،... موضوعنا هو الإنسان

+ يعني لا نتكلم بعد عن الفضائل المسيحية ، خلاص سيادتك قررت إلغاءها !!

– يا سيدي أفهمني أعمل معروف !!.. إذا بدأنا البحث من الإنسان سنجد مشاكل داخلية وأخرى خارجية تعوقه عن الحياة المسيحية .

+ مثل ماذا ؟

– مشكلة القلق والخوف مثلاً ... الخوف من عدم القدرة على مواجهة مطالب الحياة ، الخوف من الفشل في تحقيق الطموح ، الخوف من العجز عن إثبات الوجود أمام الآخرين ... ترى ما هي جذور هذه المخاوف ؟

+ ما هي يا حضرة الفيلسوف ؟!

– هي ، في رأيي ، شعور كامن بالوحدة في مواجهة الحياة ، يختلط برغبة أنانية في ان أصير أفضل من الآخرين أدبياً ومادياً...

+ والحل ؟!

– جذور المشكلة تكمن في ذاتية الإنسان ، أن الإنسان متميز في شخصه ولكنه جزء من كل، وانه كعضو في جسد لا يمكن أن يحيا سعيداً، ولا يمكن ان يتذوق الحياة الحقيقية بمعزل عن الآخرين ، وحين يدرك الإنسان أن نجاحه وفرحه وسلامه الداخلي مرتبط بنجاح وفرح وسلام الآخرين ، يستطيع أن يتسامح ويحتمل ضعف الآخرين ، ويدرك حجمه الحقيقي ، وهو ما نسميه بالإتضاع . وحين يدرك الإنسان أن تناغمه وتوافقه مع الغير لا يتأتى إلا من خلال مصدر الكل ، الله العامل في الإنسان ، يسوع المسيح الكلمة المتجسد ، يذهب عنه خوفه من الوحدة أو الفشل أو الهزيمة ويثق أن الله معه وفيه وبداخله ، وهو ما نسميه بالإيمان .

+ "جالك كلامي " ... ألم أقل لك منذ البداية أن الشباب يحتاج إلى أن يتعلم الإتضاع والإيمان وغيرهما من الفضائل !!

– نعم ولكننا نتعلم بطريقة مقلوبة ، فنبدأ من الفضائل وننتهي بالإنسان !! ولكن متي بدأنا بمعاناة الإنسان ومشكلاته ، وشخصنا جذورها وقدمنا المفهوم السليم للقيمة المسيحية كحل هذه المشاكل .. وقتها يدرك كل شاب أن الفضائل ليست شيئاً فوق أرضي بعيد المنال ، بل إنها في داخله وفي قلبه...

+ يعني أنا وأنت متفقان ؟

– لا !! .. أنت تقدم الفضيلة كشيء كمالي ، بينما هي ضرورة حياتية ، لو أدركت أن تواضعي سيخفف عني عناء الزحام ، وان تسامحي سييسر لي فهم الناس ويقرب لي السعادة ، وان إيماني سيوطد طموحي ويدفعني إلى المثابرة بغير قلق لأدركت أن ما تسميه فضائل ليست زوائد أو جوائز ، بل هي منهج لحياة مملوءة فرحاً وأملاً ، تبدأ بالله والإنسان معاً وتنتهي بالله والإنسان في شركة واحدة .

٧ـ العاطفة والجنس

في لقاء روحي للشباب في إحدى عواصم الصعيد دعيت مرة للحديث حول موضوع الشباب والمادية ، وبعد الكلمة انهالت على الأسئلة ، وفوجئت بأنها كلها حول الاختلاط والعلاقات العاطفية !! وفي مدينة أخرى بوسط الدلتا وكان الموضوع عن "النشاطات الشبابية " والاستفسارات عن الحب والاختلاط !!، وأينما توجهت وأياً كان الموضوع المحدد للقاء ، كانت أكثر المناقشات ، تدور حول الاختلاط والحب والعلاقات العاطفية !!

هل الحب حلال أم حرام ؟ هل يمكن أن توجد صداقة بريئة بين شاب وفتاة ؟

أحب زميلة أو زميلاً ، ماذا أفعل ؟! وكيف أعرف إن كان حبي صادقاً ؟

أتعامل ببساطة مع الشباب ، فيظنونني فتاة مستهترة ؟!

كيف أجد شريك الحياة المناسب ؟ ما هي حدود العلاقة بين الخطيبين ؟

هل يصح أن تكون الكنيسة – بيت الله – مكاناً للبحث عن زوجة ؟!

الزواج سر مقدس ، فكيف يترك للجنس أن يدنسه ؟!

وفي لقاء قريب في إحدى أبرشيات الصعيد تراكم أمامي كوم هائل من الأسئلة أدركت منه قدر الحيرة والتخبط لدى أكثر الشباب في هذا المجال الخطير .

أسئلة تتكرر ، أحياناً بنفس الألفاظ ، وعلى مدى أعوام متتالية ، ماذا يعني هذا ؟... في الغالب أن ما نقدمه من إجابات لا يقنع الشباب ، ولا يتفاعل معهم ، لذا يظل السؤال قائماً .. وإذا علمنا أنه نادراً ما يدور حوار حول هذا الموضوع ، أدركنا أن شبابنا مظلوم تماماً في هذا المجال ، فهذه المنطقة الحيوية عن العاطفة والجنس ، منطقة مجهولة تماماً بالنسبة له ، فهذه الأمور لا تناقش في المدرسة ، ولا تناقش في العمل ، ولا تناقش في وسائل الأعلام ، وبالقطع لا تناقش في البيت !!

وماذا عن موقف الناس في الكنيسة ؟ .. إن هناك فكرة سائدة ، مهما أدعينا العكس ، وهي أن اجتماع الرجل والمرأة يتيح الفرصة لعمل الشيطان !، ويتردد كلام كثير عن وضع النار بجوار البنزين ، ووضع اللهب بجوار الكيروسين !

ويحضرني هنا أن المسئول عن الخدمة في أحدى المناطق ، معتقداً أن الخدام في منطقته لا يملكون الاختبار والمعرفة الكافية ، قرر أن يفصل الاجتماعات المختلطة بلا استثناء . حدث هذا في عام ١٩٩٩ !، بل إن هناك مناطق بأكملها تحرم الاختلاط تماماً ، وهناك من يفصلون بين الجنسين بدءاً من سن عشر سنوات !

وبديهي أن هذا الكلام دخيل على فكر الكنيسة الأصيل ولن أكرر هنا ما كتب في هذا فهو كثير ، وفوائد الاختلاط البناء عديدة وحيوية ولكنه الخوف ... الخوف !

وُرب خادم ناقشته بأن الشباب يختلط في كل مكان ، فلم لا يختلط في الكنيسة ؟ فأجاب : فليختلطوا كما يحلو هم ، ولكن بعيداً عنا ! . إذن من يرفضون الاختلاط يرفضونه خوفاً على أنفسهم وهرباً من تحمل مسئولية ما قد ينجم من مشاكل .

إن العلاج الحقيقي لقضية العفة ينبع من أن ينظر كل جنس إلى الآخر نظرة إنسانية ، باعتباره إنساناً متميزاً له شخصيته وفكره ووجوده الفعال ، ومن هنا ينشأ الاحترام المتبادل والفهم المتبادل ، ولا تعود الفتاة بالنسبة للشاب مجرد وعاء لرغباته ، ولا الشاب بالنسبة للفتاة مجرد مرآة لمحاسنها . وكيف يمكن أن ينشأ هذا دون تعارف أصيل ودون شركة بناءة من خلال عمل مشترك وهدف مشترك ؟!

إن الجذور الكامنة لهذا الموقف من قضية الاختلاط تنبع من نظرة غير سليمة إلى المرأة وليتحدث من يتحدث عن كرامة المرأة في الكنيسة ، وعن دورها في الكتاب المقدس كقائدة ونبية ، كأم ومعلمة ، كخادمة وشماسة ، كقديسة وشهيدة ، ولتقل يا عزيزي ما شئت عن دبوره وحنه وراعوث واستير وأليصابات ومريم العذراء والمجدلية وليديا .. فبعد كل هذا ، وقبل كل هذا توجد فكرة رابضة في الأعماق عن أفضلية الرجل على المرأة

، ورغم كلام الله بوضوح عن المرأة أنها نظير (معادل) للرجل (تك ٢ : ١٨) ، فكثيرون يعتقدون أن المرأة هي السبب في طرد آدم من الجنة ! ، والمرأة ، وليست محبة المال ، أصل لكل الشرور... قد لا يقال هذا الكلام صراحة ، ولكننا نعيشه صراحة . ويصر البعض على أن يتلمذوا أولادهم بطريقة معينة ، ويختارون من بستان الرهبان فكرة الهروب من المرأة كما نهرب من الشيطان ، بينما يعبرون سريعاً على قصة المرأتين المتزوجتين اللتين أعلن الرب للقديس أبي مقار انهما قد تساوتا معه في حياة القداسة[٩] .

وبهذا يظل الجنس – هذه الهبة المقدسة – في دائرة التحريم ، ويظل أولادنا يحصلون ثقافتهم الجنسية من أسوأ المصادر ، ويظل شبابنا يعانون الشعور بالذنب تجاه هذه الطاقة الجبارة التي لا ذنب هم فيها سوي ان الله القدوس قد خلقها في صميم كيانهم . وكثيرا ما يؤدي هذا إلى أن أغلب الشباب تساورهم فكرة خاطئة بأنه لا حياة سليمة مع المسيح إلا بمعزل تام عن المجتمع .

لقد وضع الله هبة الجنس المقدسة فى الإنسان لكى يخرج من محيط ذاته ويتحد بالآخر فى شركة حب باذلة . ومن المحرم على الرجل أن يتزوج بأقرب النساء إليه مثل أخواته وبناته ، بل يلزمه أن يقدمهن زوجات لرجال آخرين لتتسع الأسرة الإنسانية ، وهو عرف ثابت لدى كل الشعوب مما يؤكد أنه مغروس فى الضمير منذ البدء ، ولكن فساد الطبيعة البشرية بعد السقوط انحرفت به الى مجرد اللذة .

إن الفكر الكنسي لم يضع أبدا أفضلية لطريق على طريق ، ولكن لكل موهبته ، ولو سلمنا بأن البتولية طريق للكمال ، فإلى من نتوجه بخدمتنا ؟ إلى المتبتلين أم إلى الشباب العادي ؟... ويامن تطنب في هذا المجال ، كم في المائة من الشباب يختارون طريق التبتل المقدس؟ إن تاريخ الكنيسة يعلمنا أن البتولية موهبة لم تعط إلا لقليلين .

إن الجهل الرهيب الذي يعيشه أولادنا وبناتنا في قضايا العاطفة والجنس ، يشكل سبباً قاتلاً لأعداد كبيرة ، تنصرف بصفة نهائية عن الخدمة ، بل وأحياناً عن الإيمان كلية . وينبغي لنا أن نعترف بأننا نغمض عيوننا لأننا لا نريد ، وربما لأننا لا نعرف كيف نتعامل مع هذه القضايا الحيوية ، قضايا الجنس والحب والزواج .

ونشكر الرب أنه في السنوات الأخيرة بدأ الاهتمام بهذا المجال يظهر واضحاً فيما يكتب ويدرس في الكنيسة[١٠] . والحق أن أكثر الكنائس قد تنبهت إلى هذا .

٨ـ التربية الفردية

حين حصلت على الإعدادية بمجموع ٧٨ ٪ أنبني والدي مقارناً بيني وبين ابن عم تجاوز مجموعه ٩٠ ٪ ، وحين تفوقت في الثانوية ، أكدت عليّ والدتي ألا أذيع الخبر خوفاً من الحسد ! إن تربيتنا تتم بطريقة مغرقة في الفردية ، وهي ليست مسألة جديدة فقد ألح التلاميذ على رب المجد يسألوه : من هو الأفضل ؟

---

٩ بستان الرهبان – الطبعة السابقة – صفحة ٢٨ .

١٠ قام الخادم الموهوب د.عادل حليم بجهد فائق فى هذا المجال وتبنت الكنيسة كتاباته .

إن هذا الاتجاه المغروس في أعماقنا منذ الصغر يصبح سوط عذاب عندما نكبر .. كل يريد أن يكون أفضل من الجميع .. تنافس وتحاسد بلا رحمة !! ، وكم يتحمل الناس من مشاق لكي يؤثثوا شقة أفضل أو يقيموا حفل زفاف أكبر ؟ ، بل كم من محتويات منازلنا تحملنا ثمنه فقط لكي نريه لمن يزورونا ، بينما لا نستعمله إطلاقاً ؟ وتغذي الأفلام والمسلسلات هذا الاتجاه فكثيراً ما تقدم لنا البطل الفرد الذي ينتصر على كل الصعاب ويخترق كل المستحيلات مثل : سوبرمان – رامبو .. وغيرهم كثير !! ... صف طويل من أبطال الوهم ، يكرس الاتجاه الفردي في حياتنا ، وينفس عن إحباطاتنا بأحلام اليقظة اللذيذة !

وحتى في إطار الخدمة ، كم من مرة ترددنا في التعاون مع الكنائس المجاورة ، إذ لنا طريقنا الخاص ولا شأن لنا بغيرنا ! ، وكم من مرة قدمنا فيها بيانات عن خدمتنا بشيء من التجميل حتى نبدو في الصورة الأحسن ؟!

ولقد رأيت بعيني التوتر الشديد الذي يصاحب التنافس في المهرجانات الصيفية ، وكم كانت العصبية زائدة والانفعال حاداً حين خيل لبعض الخدام أن شبابهم قد ظلموا في الدرجات أو أنهم يستحقون ترتيباً أفضل . ولقد وصل الأمر – ويا للأسف – إلى حد نشوب مشاجرة عقب مباراة في كرة القدم بين شباب كنيستين بسبب ضربة جزاء لم تحتسب ! وكأننا في ملعب كفر بلاطة ولسنا في منطقة الأنبا رويس على بعد أمتار قليلة من المقر البابوي الموقر ، ولكنه منهج التربية الفردية منذ الصغر .

وها هي بلادنا تواجه الصعوبات على طريق التنمية ، فيقف منها أغلب الناس متفرجين مكتفين بإلقاء العيب على الحكومة ، دون ان يحرك واحد منهم إصبعاً واحداً للحل كل في دائرته ، ولكنهم معذورون ، فقد تربوا هكذا ولو كانوا قد تربوا بشكل أفضل لكانوا اكثر إيجابية ، وإن كنا بالطبع لا نبرئ الحكومة من المسئولية .

وكم من قضايا يمكن مواجهتها بالعمل الجماعي ، فغير مسئوليات الخدمة كم من مشروع ناجح سيقوم لو تعود الناس على عمل الفريق . ولكن الشباب يخرجون إلى الحياة ، كلٌ لا يري إلا نفسه ورغبته في التميز ، وحين لا تساعده ظروفه على تحقيق ذلك ، لا يجد أمامه سوي السخط وصب الانتقادات على كل شيء !!

وفي الفكر المسيحي لا خلاص خارج الكنيسة ، وانتماء الإنسان إلى الجسد الواحد أمر مصيري . جسد واحد وأعضاء متنوعة ولكنها تتكامل ولا يملك الجسد أن يستغني عن أي عضو فيه ، ولا توجد أفضلية لعضو على آخر ، بل الأعضاء الأصغر تستحق كرامةً أعظم (١ كو ١٢ : ٢٢ – ٢٦) ، والأهم أنه متى انفصل عضو عن الجسد ، يفقد الموهبة التي أعطيت له لكي ينميها في إطار الجسد .. فلو انتزعت العين من الجسد ، هل تستمر في الأبصار ؟! .. بل يخسر الجسد عضواً ثميناً ، بينما تموت العين وتفقد موهبتها . إن العمل الجماعي هو التعبير الحقيقي عن الاتجاه الذي أسسه السيد المسيح . أن يصير الكل إلى واحد (يو١٧ : ٢١) الأمر الذي استوعبته الكنيسة تماماً في طقوسها ، وفي سائر العبادات الجماعية .

وكثيرا ما تظهر الفردية في الخدمة حين نريد من شبابنا أن يصيروا مثلنا ، وخبروني كيف يمكن أن نصبح جسداً واحداً لو أصبح شبابنا نسخاً مكررة منّا ؟! هل سبق أن رأيتم جسداً مكوناً كله من أعضاء متماثلة ؟! إن تمسكنا بصورة الخدمة الهرمية ، سيؤدي بنا إلى تمزيق الجسد الواحد ، وتفتيته إلى أعضاء ميتة .

وربما يعترض البعض على أن التنوع يمكن أن يؤدي إلى ظهور شطحات متعبة . إن هذا لن يحدث طالما كان هدف المجموعة هو خدمة المسيح وليس الأشخاص ، وطالما ظل تيار المحبة يسري كما تسري الدماء في كل خلايا الجسد ، وطالما استمر سعي الخادم الدوؤب نحو ضم أعضاء جدد ، ومساندتهم وستر سهواتهم حتى يثبتوا ، وحتى يزداد الجسد قوةً وشمولاً وعطاءً .

٩ – الإنتمـــــاء

تخلو برامج التربية الكنسية في جميع المراحل السنية من أية مواضيع عن تاريخ مصر أو جغرافيتها أو تطورها الاجتماعي أو مواردها الاقتصادية ، وواضح أن هذه الموضوعات لا ترد على أساس أنها تدرس في مراحل التعليم المختلفة ، وفي رأيي أن هذا خطأ مركب !! . فحين يدرس الشاب منذ طفولته مجتمع بلاده وجذوره التاريخية، وسمات الشخصية المصرية سيفهم ، وحين يفهم سيحب ، وحين يحب سيترجم حبه إلى عمل إيجابي نحو تنمية هذا المجتمع وحل مشاكله واستيعاب همومه وقضاياه وإدراك آماله وتبني طموحاته .

فكيف يمكن أن يكون المسيحي نوراً للعالم أو ملحاً للأرض ، وهو لا يعلم شيئا عن هذه الأرض – أرض مصر – التي يفترض فيه أن يكون نوراً لها ، بخدمته ومحبته وجهاده من أجل الحياة الأفضل له وللآخرين .

إن وعي الشباب ببلاده هو العلاج الأكيد لمشاكل الاغتراب (الشعور بالغربة) وعدم الانتماء والهامشية . وقد قمنا بتجربة في حلقة دراسية للشباب والخدام حيث عرضنا مختارات من الموسوعة الفذة عن مصر " عبقرية المكان " للراحل النابغة الدكتور جمال حمدان وكانت استجابة المشاركين رائعة .

قد يقول البعض : ولكن هذه الأمور تدرس في المدارس ، فما الداعي لتكرارها مرة أخرى في الكنيسة ؟ والرد على ذلك أنها تدرس بالأسلوب العقيم الذي أشرنا إليه (إحفظ هذا لكي تنجح) .. فلا يشكل نارمر أو سنوسرت الثالث أو امحتب أو أحمس أو تحتمس الثالث أو إخناتون أو بطليموس الثاني أو عقبه بن نافع أو صلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس أو طومان باي أو محمد علي أو الخديوي إسماعيل أو أحمد عرابي أو طلعت حرب أو سعد زغلول أو مصطفي النحاس أو جمال عبد الناصر ... وغيرهم من القادة ، سوي مجرد أسماء أو معلومات جافة للاستذكار ، وليسوا علامات أو نماذج يهتز لها القلب لما أرست من مبادئ أو قدمت من تضحيات أو أنجزت من أمجاد ... ولا يدرك الشاب المصري أن هؤلاء وغيرهم كانوا علامات على الطريق الطويل الذي وصل بنا إلى مصرنا الحالية والذي يمتد إلى المستقبل إلى ما شاء الله ...

وماذا عن الاساتذة المبدعين مثل فيلو وافلوطين والليث بن سعد وواصل بن عطاء وابن رشد والمقريزي والجبرتي ومحمد عبده والنديم وبن صنوع وشوقي وحافظ وجورج زيدان وطه حسين وقاسم أمين ومحمود مختار وسلامه موسى وتوفيق الحكيم وأحمد أمين وزكي نجيب محمود وزكريا ابراهيم ونجيب محفوظ ... هؤلاء الذين قد نتفق أو نختلف على أفكارهم ولكننا لن نختلف على تأثيرهم .

هذا نري شبابنا – مسلمين ومسيحيين – يتبادلون النكات عن مصر، وكأنما ليسوا أبناء هذا الشعب ، وكأنما ليست عليهم مسئولية حقيقية نحو بناء هذا الوطن والانطلاق به نحو آفاق المستقبل ، ولكنهم لم ينصهروا في

حب مصر ، ولم ينفعلوا مع كتابات احمد بهاء الدين وفيليب جلاب ويوسف إدريس وسيد عويس ، ولم يتفاعلوا مع دراسات السيد ياسين وسيد القمني وغالي شكري وطارق حجي وجلال أمين ، ولم تتوهج داخلهم ابداعات بيرم التونسي وفؤاد حداد واحمد فؤاد نجم .

إن الوعي ببلادنا ، والوعي المكتمل فقط ، هو الذي يجسد المقولة الحكيمة لقداسة البابا شنوده : إن مصر بالنسبة لنا ليست وطناً نعيش فيه بل هي وطن يعيش فينا .

إن بناء الهوية المصرية والإنتماء القومي ، ليس فقط علاجاً أكيداً لأمراض الاغتراب وعدم الانتماء والهامشية ، بل هو أيضا الترياق الفعال ، ضد السموم الدخيلة ، التي تطرح الهوية العقائدية بديلاً للهوية القومية .. هذه الأفكار الظلامية التي تريد أن يصبح التعصب الديني بديلاً عن الانتماء للوطن .

وقد تعاظمت أهمية هذه القضية بعد انهيار الحواجز بين الثقافات ، وبعد أن أصبح العالم تحت سيطرة قوة واحدة ولسنوات مقبلة ، وهي بالطبع حريصة على نشر فكرها وتقديم نموذج حياتها على أنه النموذج الأمثل ، فضلاً عن أنه أصبح لكل فكر، مهما كانت اتجاهاته ، وسيلة قوية للوصول إلى الناس ومخاطبة عقولهم .

ولكن نقص البرامج ليس هو السبب الوحيد لهذا الموقف من قضايا المجتمع ...

١٠ـ النظرة إلى التاريخ

إن مئات السنين التي عاشها المصري تحت نير الاستعباد الأجنبي تدفعه إلى التحسر على ماضٍ ، كان فيه سيد الحضارة بلا منازع . ومن هنا جاءت النظرة الحالمة إلى الماضي : فأبطالنا بلا نقيصة واحدة ، وأعداؤنا بلا فضيلة واحدة .

ورغم أن الكتاب المقدس لم يتحرج عن ذكر نقائص أبطاله ، إلا أننا حين نتحدث عن أبطالنا نراهم فوق مستوى البشر ، وحين نقرأ تاريخنا نجد فيه كل أفعال التفضيل ، مثل : أروع وأعظم وأكبر ... إلخ . كأنما في تلك العصور كان العالم كله يقف جامداً ونحن وحدنا نتحرك . وهكذا نفتقر إلى النظرة الموضوعية ونتبنى الموقف الشخصي . والغريب أنه بينما يعرض الكتاب المقدس ببساطة جريمة داود ، نتحرج عن مناقشة تاريخنا بموضوعية علمية . إن الذي يتحدث عن إسراف الخديو اسماعيل ينسى أن في بداية عهده كان بمصر أقل من ٤٠٠ مدرسة ، وحين ترك الحكم كان بها أكثر من ٤٠٠٠ مدرسة فضلاً عن شق الترع واستصلاح الأراضي وتأسيس مجلس للنواب ، وأن في عهده ألغيت الجزية وأصبح القبطي مواطناً كامل المواطنة . لكننا نقرأ تاريخنا في الغالب كما نشاهد أفلام الميلودراما .

ويلفت النظر أن ما كتب في تاريخ الأقباط يركز أساساً على الأشخاص من البارزين في كل حقبة ، ولكنه نادراً ما يتحدث عن الأفكار السائدة ، أوالظروف الاقتصادية أوالمناخ الأقليمي والتحولات التاريخية وتأثيرها على الأقباط .

ويندر أن تجد باحثاً قبطياً إهتم أن يقرأ المراجع الأساسية في تاريخ مصر . والحق أن هيئة الكتاب أصدرت عدداً من الدراسات في تاريخ مصر ، تصدى لها باحثون مصريون اعتمدوا المنهج العلمي ، وكلها ذات فائدة عظيمة للباحث الجاد . إننا نحتاج إلى دراسات أعمق في تاريخ كنيستنا ، وسيدهش الباحث عندما يجد أن المراجع أكثر

مما يتصور أحد ، لكن من يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له . هذا تسود النظرة الحالمة لتاريخنا ، ومنها إلى باقي الأمور . أن بداية الطريق لحل هذه الإشكالية بين التراث والعصر ، هي في أن ندرس تاريخنا وتراثنا دراسة علمية موضوعية ، وأن نبحث المسرح الذي دار عليه التاريخ ، لنرى ونفهم ، ونفطن إلى أن أبطالنا كانوا بشراً ، وسبب عظمتهم الحقيقية في أنهم بشر ، جاهدوا ضعفهم ، ففشلوا حيناً ونجحوا أحياناً ، ولكنهم جميعاً كانت تضحياتهم واجتهاداتهم من أجل ذلك الوطن الذي يعيش فينا .. مصر .

خلاصة الباب الأول

١– التعليم الفعال يتم من خلال الحوار والبحث والدرس وليس بواسطة التلقين .

٢– لا توجد فكرة فوق النقاش ، ولا تؤسس قيمة الفكرة على شخص قائلها بل على مدي اتفاقها أو تعارضها مع الكتاب المقدس وفكر الآباء القديسين ، وعلى مدي نفعها وفعاليتها في حياتنا الروحية .

٣– أسلوب الحوار وديمقراطية الفكر يعمق مبدأ الطاعة المستنيرة ويبني الروح الجماعية الكنسية السليمة ، حيث الجسد الواحد ذو الأعضاء المتنوعة ، فلا يوجد بالضرورة حل واحد لكل موقف ولا إجابة واحدة لكل سؤال .

٤– التربية السليمة تبني الشخصية المستقلة وتدرب الشاب على اتخاذ القرار.

٥- أهمية تحقيق مصدرما ننسبه إلى الآباء القديسين من أفكار ومقولات .

٦– حتمية توضيح الصلة بين ما نتعلمه من مبادئ عقائدية ومفاهيم طقسية وروحية ، وحياة الناس اليومية . ولا يتأتي هذا دون أن يتعمق من يتصدون للتعليم في فهم كل فكرة أو حقيقة قبل تعليمها . وإننا لنثق أن السيد المسيح حمله خفيف وما تقدمه المسيحية يمكن للكل أن يفهموه ، متى قدم بالأسلوب المناسب .

٧– أن يمتد التعليم إلى قلب هموم وتناقضات الإنسان المعاصر ، وأن يدرسها بشجاعة ودأب ، مثل قضايا العاطفة والجنس والالتزام الاجتماعي والانتماء .

٨– أننا يجب أن نعيد دراسة تاريخنا بمنهج علمي موضوعي لنكتشف ما به من كنوز حقيقية وليس لمجرد الانبهار بالبطولات .